بسم الله الرحمن الرحيم

من أحَدِ عوامل بناءِ الأمة، في زمنٍ كثرت فيه الخلافات والنزاعات، وأصبح الإقصاء أحد عوامل التفرقة والهدم في التجمعات الإسلامية، الانصات للآخر، فحسن الاستماع بشكل عام تقوم عليه بناء العلاقات، وهو مِفتاح النجَاح.

فالإنصات الحَسن والاستماع المؤدَّب احترامٌ وتقدير، ولقد ذَكَر سبحانه السمعَ والبصر في تِسعةَ عَشر موضعًا من القرآن، قدَّم السمعَ في سبعةَ عَشر موضعًا؛ ما ينبِّه على مكانِ السمع وقدرِه وعظيم أثره وكبيرِ نَفعه، فالإنسان تبدأ معارِفُه بالسمع، وبه يفقَه التشريع، ويكون أهلاً للتكليف والامتثال.

ويقول الخبراء أننا نتواصل بطرائق شتى وبوسائل مُتعدِّدة، لكن يستحوذ السمع على ستين في المئة من وسائل التواصل لكننا مع ذلك لأننا لسنا مُستمِعين جيدين ولا نمتلك مهارات الاستماع الجيدة لا نكاد نحتفظ بأكثر من عشرين إلى خمسة وعشرين في المئة مما نسمع.

واسمع للمولى وهو يحدثنا عن قوم أحسنوا الاستماع يقول سبحانه: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ}[الجن: 29، 30]، نفر من الجن استمعوا للقرآن، كما يستمع أحدنا اليوم لخطبة الجمعة، لكن الجن استمعوا وفقهوا وفهموا ثم انقلبوا إلى أهلهم منذرين، ينقلون الخير الذي سمعوه لكل الناس، فهل إذا سمع أحدنا الحق من أي مكان حرص على نشر الخير وبذله لكل أحد؟! ذلكم هو السماعُ الفعّال؛ سماعُ عِلمٍ وفقهٍ، سماع تدبُّر وفهمٍ، سماع تعقُّل وانصياع، ولا خيرَ في السمع ولا في الاستماع إذا لم يظهَر أثرُ ذلك على تصرفاتنا قال تعالى: {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ}[الأنفال: 21].

وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضوان الله تعالى عليهم كانوا يستَمِعون وينصِتون إليه وكأنَّ على رؤوسهم الطير من فَرط التقدير والأدب والمهابَة، وأيضاً من حرصهم في الرغبة في طلب الحقّ وحُسن الإنصات.

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: ((لا خيرَ في الحياة إلاّ لأحد رجلين: منصتٍ واعٍ، أو متكلِّمٍ عالم))، وقال ابن عباس رضيَ الله عنهما: (لجليسي عليّ ثلاثٌ، أن أَرميه بطَرفي إذا أقبل وأن أُوَسِّعَ له في المَجلس إذا جلس وأن أصغي إليه إذا تحَّدث))

أحدنا عندما يكون في ضيقٍ فإنّه لا يجد الفَرَجَ ولا الأنس، إلاّ عند من يحسِن الإنصاتَ إليه والاستماعَ إلى شكواه؛ يواسيه ويسليه، فيحِبّ الناس المنصتَ لأنّه مغناطيس تنجذِب إليه القلوب وتَلجَأ إليه الناس.

في زمن الإقصاء والتنازع، في زمن يظن كل طرف أنه هو وحده صاحب الحق، لن يكون العلاج ولا الحل أفضل من أن نستمع بأدب وأن ننصت بخُلق للآخر.

ونحن بحاجة وبالأخص العرب للأسف على التدرب لمهارات الاستماع للآخرين وهذا يحتاج لمجاهدة نفس فمن حسن الاستماع والانصات:

1-ألا تعيش أحلام اليقظة فتجلس مع شخص يتكلم وأنت تجول وتسرح بأفكارك هنا وهنا.

2- ألا تمارس المناظرة الباطنية فالمتكلم يتكلم وتسمع منه فكرة فتنشغل وتقول: هو يقول كذا وكذا لكنه قال هذه المرة كذا فإذن هو متناقض، وهنا سوف تضيع وسوف تصبِح في عالم آخر وأنت مازلت تُجري مناظَرة داخلية.

3- ألا تتسرع في الحكم، فتقول لقد فهمنا أنت من جماعة فلان أو التيار الفلاني، بمجرد كلمة أو فكرة صنفك مباشرة وهذا خطأ طبعاً، أعطه فرصة أن يُعرِب عن وجهة نظره، حاول أن تتقبل هذا، ولا تُسارِع إلى الحكم فالذي يحكم مباشرة ويصنف هو مستمع سيء.

4-ألا تنصب الكمائن وتتصيد الزلات والأخطاء اسمع بنية طيبة فوالله التوفيق كل التوفيق لمن حسن نيته

5- ومن أهم الآداب عدم المُقاطعَة، ألا تُقاطِع مَن يتحدَّث، لكن نحن نُقاطِع لأسباب كثيرة، مِن أشهرها أو في مُقدَمها المُشارَكة في الحديث، نحن نُقاطِع لكي نُظهِر لمُحدِّثنا أو للآخرين إذا كان هناك ثمة آخرون أننا نعرف ما يقول، فنحن نعرف هذا الحديث ومن ثم نُكمِله ، نُكمِل بيت الشعر أو نُكمِل القصة ونذكر مصدرها وهذا خفة عقل وقلة أدب، يقول خالد بن صفوان إذا استمعت إلى مُحدِّثك لا تُشارِكه في حديثه وإن عرفته على وجهه فإن ذلك خفة عقل وسوء أدب، يقول التابعي الجليل عطاء بن أبي رباح ربما استمعت إلى الغلام يتحدَّث بالحديث فأصغي إليه وأنصت وقد عرفته قبل أن تلده أمه، أي أسمعه إلى النهاية ولا أُظهِر أنني أعرفه، ومن ثم يتشجع كأنه – ما شاء الله – حدَّثه بحديث لم يعرفه، وعطاء هو مفتي

المحرمين في وقته ، فانظر إلى هذا الأدب. قالوا عن سفيان الثوري أحد الأئمة العظام في الإسلام ربما كان يُعجِب من الحديث كأن يقول ما شاء الله مثلاً للدلالة على أن هذا الحديث يُعجِبه وهو أدرى به، أي يعرفه على وجهه، لكن هذا أدب فيتصرَّف كما لو كان لا يعرفه، وهذه أخذها الشاعر البليغ العظيم أبو تمام فقال:

مَن لي بإنسان إذا أغضبتـــه وجهلتُ كان الحلمُ ردّ جوابه. وتـراه يُصغي للحديث بسمعه وبقـلبه ولو أنه أدرى بـــه. أي أنه قال أين أصيب هذا الرجل؟ أين أجد مثل هذا الرجل الكامل؟

والحمد لله رب العالمين